ذات صباح

أوشكت أن تنشق على الأفق الشرقي كلة الصباح الوردية عن جبين الشمس ، وأنا جالس في مصلى على حافة ترعة كانت تفيق بذلك الفيض الحشي الذي حمله النيل من هضبات وادينا الحبيب ؛ وكانت تحجبني عن الطريق العريض على الضفة الأخرى للترعة أغصان الصفصاف المتهدلة التي تمس الماء فتبدو كأنها تحنو على هذا النضار الغالي ؛ وجلست بحيث أتبين المارة في يسر من خلال الصفصاف الحاني ولا يكاد يتبينني أحد إلا في مشقة ...

ورحت أرقب طلوع الشمس على الأفق ، ولعلي إنما طلبت الفضاء في السماء حيث غطت الفضاء على الأرض عيدان الذرة وقد استطالت واستغلظت على سوقها وأخرجت سنابلها ، وعيدان القطن وقد طالت فروعها وتدلت زهراتها ، فلم يبق أمام ناظري على الأرض إلا ذلك الطريق القريب على الضفة الأخرى للترعة تتقاطر فيه أسراب الصبايا عائدات بجرارهن من الترعة الكبيرة في هذه البكرة الرخية ، خفيفات تتماوج قدودهن الممشوقة الناهدة تحت الجرار الثقيلة الطافحة بالقرات العذب الذي يجري به النيل ...

وجاءت فتاتان فآثرتا أن تملآ جرتيهما على مقربة من المصلى فكنت أراهما من حيث لا تريانني ، أما إحداهما فما لبثت أن عرفتها فهي بهيجة بعينها ! ... بهيجة تلك البنية الريفية التي ما كنت ألقاها وهي بين العاشرة والثانية عشرة إلا استوقفتها وضاحكتها والتي كنت أحدث نفسي يومئذ بما سوف يكون لها من فتنة وسحر ...

وها هي ذي في الثامنة عشرة أو فوقها قليلا شمس يضيء جبينها الأبلج كما تضيء شمس الأفق ، قد أفرغت فيها الطبيعة الريفية سحرها إفراغاً كما يصنع الفنان بدميته حين يريد أن يبلغ بها منتهى قدرته ؛ وملأت ناظري من خصرها الدقيق وردفها الملء وصدرها الناهد ؛ وشمرت عن ساعديها وكشفت عن ساقيها لتنزل على حجر في الماء ، فما حسبت ساقيها وذراعيها لولا تحركها وتثنيها إلا صنعة فنان بالغ في تسوية مرمره ليتحدى به الطبيعة أما وجهها فما تفنى اللغة عنه فلن يتصور جماله إلا أن يرى ...

وأما صاحبتها فسمراء لعوب في وجهها وفي هيكلها وفي حديثها ما نسميه خفة الروح ، وهي لا تفتأ تضحك وتداعب رفيقتها ولا تريد بهيجة على أن تبتسم ابتسامة طفيفة لا تلبث أن تنطفىء ...

وحيرني هذا الهم في وجه بهيجة ، فعلى فمها الرقيق وفي عينيها الواسعتين الزرقاوين الطويلتي الهدب ، خيال الألم والحزن الدفين ، وفي خديها شيء من الشحوب لولا تلك الحمرة الشديدة التي تمتاز بها صفحة هذا الوجه ...

وقالت فاطمة — وهذا اسم صاحبتها كما تبينت — تحدث بهيجة وهي فوق الحجر يغطي الماء ما فوق خلخالها قليلا : أأدفعك يا بهيجة في الماء فتغرقين وتلتهمك الجنية ؟ وقالت بهيجة ليتني أغرق فلن ينجيني إلا الموت !

وعجبت مما أسمع وازددت تطلعاً إلى معرفة ما يحزنها فما أشد ما يؤلم النفس مرأى الجمال الحزين ، وأنصت إلى فاطمة وقد ألقى في روعي أنها سوف تكشف هذا السر ...

وقالت فاطمة ، وقد خرجت صاحبتها من الماء بعد أن ملأت الجرتين وجلست مستندة إلى جذع شجرة : فيم هذا الهم يا أختاه وغداً ليلة الحناء ؟ وحاولت بهيجة أن تبتسم ، فما اقتر ثغرها الجميل حتى انطبق ، وامتلأت مقلتاها الساحرتان بالدمع ، وتسايل الدمع فجرى فوق خديها ، ثم دفنت وجهها في كفيها وأجهشت إجهاشة كادت تطلق الدمع من عيني ... وما أيسر ما ينطلق دمعي فلا أمسكه إلا بجهد ...

وأمسكت فاطمة عن الضحك وراحت تهدهد صاحبتها وتقول : لعل الخير فيما تكرهين ، وما عيب حسن وهو ابن الجمل والناقة ، في بيته الخير وزوجات إخوته من أحسن البيوت وإن لم يكن جميلات ، وسوف تكونين أنت زينة الدار ... وبأي شيء يمتاز إبراهيم عنه ؟ وكيف تقوى الواحدة منا على مخالفة أبيها ؟ رأى أبوك أن يزوجك من حسن فهل تعصينه ؟ وما